من

فيض سورة الكوثر

عبد المجيد حامد صبح

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م - المنصورة
التوزيع شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - عمارة الوفاء
ت ٣٤٢٧٢١ - ص.ب ٢٣٠ - تلكس DWFA UN ٢٤٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الكوثر

المؤلف : عبد المجيد حامد صبح

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـــ الاحتفال بالمولد، وما يحسن فيه*:

للمسلمين عيدان: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وكلاهما يعقب أداء فريضة من أركان الإسلام الخمسة: الأول عقيب صيام شهر رمضان، والآخر عقيب فريضة الحج.

وأما الصلاة فعيدها الجماعة، والجمعة.

والجمعة حج المساكين!!.

وأما الزكاة فهى دوارة على العام، لايكاد يخلو منها يوم، أما ماعدا هذا، من الاحتفال للمناسبات الدينية فمبتدع، لم يؤثر له نص، ولم تسبق له سابقة من سلف الأمة الذين يقتدى بفعالهم فيما لم يؤثر له أثر من نصوص الدين.

ويقال إن أول من أشاع هذه الاحتفالات هم الفاطميون، عندما أقاموا لهم دولة بمصر، لذلك لاتكاد تجد الاهتمام بهذه المناسبات إلا فى مصر، وبلاد غرب أفريقيا، التى قدم منها الفاطميون، وقد رأيتُ في ليبيا اهتماماً بمولد الرسول ﷺ، لايظهر مثله فى العيدين، وقد

* المحاضرة قيلت فى مناسبة احتفال بعض الجماعات بالمولد النبوى.

أدركت الأعياد هناك مرات. ويخرج الصبية ليلة المولد يحملون قناديل صغيرة، ذات ألوان جميلة وهم يغنون بهذا النشيد:

هذا قنديــل وقنديــل
يشعل فى ظلمات الليل
هذا قنديــلك ياحــوّا
يشعل من المغرب توّا
هذا قنديــل النبــى
فاطمــة جابت على
هذا قنديــل الــرسول
فاطمــة جابت منصور

ولما حدثت بعض تلميذاتى، من طالبات دبلوم المعلمات، فى أن عيدى الإسلام هما عيد الفطر، وعيد الأضحى، كن فى غاية الاستغراب، وأخذن يرددن: حتى مولد الرسول، حتى مولد الرسول؟!!

محاولة التماس أصل:

وقد حاول بعض العلماء أن يجد أصلاً للاحتفال بالمولد: جاء فى حديث ضعيف أن رسول الله ﷺ، عق عن نفسه بعد ماجاءته النبوة. قال الإمام أحمد: هذا حديث منكر.

قال ابن برهان، فى السيرة الحلبية جـ١ ص٧٦: والحديث المنكر من أقسام الضعيف، لأنه باطل، كما يتوهم بعضهم.

وأقول:

من المنكر مايرد، ولا يعمل به، وذلك:

ـــ إذا رواه ثقة، وخالفه الثقاة.

ـــ أو رواه راو غير حافظ وغير عدل.

الباعث الحثيث ص ٤٩ ـــ ٥١.

قال ابن برهان:

والحافظ السيوطيّ لم يتعرض لذلك (لدرجة الحديث والعمل به)، وجعله أصلاً لعمل المولد. وقال: لأن العقيقة لاتعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن هذا الذى فعله النبى ﷺ، فعله إظهاراً للشكر على إيجاد الله تعالى إياه رحمة للعالمين، وتشريفاً لأمته، كما كان يصلى على نفسه لذلك.

قال: فيستحب لنا إظهار الشكر بمولده ﷺ.

قال ابن برهان: هذا كلام السيوطيّ، ولم يعقب عليه بشيء.

وأقول:

نحن الآن أمام أمرين:

ـــ الحديث.

ـــ وجعله أصلاً للمولد.

أما الحديث، فقد علمنا منزلته. وعلى فرض جواز العمل به، فهو في العقيقة، وهي سنة عن المولود يوم سابعه، وكأن الرسول ﷺ تدارك السنة بعدما تعلمها من الوحي. والعقيقة لاتكرر، وبالتالي فجعل زمانها عيداً لادلالة للحديث عليه.

وأما جعله أصلاً للمولد، فمن ناحية لفظه، ظهر لنا بُعده، ومن ناحية فَهْمِه هو أن الرسول فعل ذلك شكراً على إيجاده رحمة للعالمين. فالرسول إذن شكر على بعثه، لاعلى مجرد ميلاده، إذ الميلاد في ذاته ليس أمراً متميزاً. إنما ميزة الرسول حقاً هي نبوته ورسالته.

إذن، استنباط السيوطي استنباط من غير موضعه، وعلى صحة استنباطه يكون الاحتفال بالرسول باعتبار رسالته، ليس باعتبار مولده.

بناء على كل ماتقدم، نرى ههنا أمرين خارجين:

الأول:

اقتصار بعض المحتفلين بمولده، ﷺ، على ذكر خوارق للعادات، من قبيل تزوج عبدالله بآمنة، إلى ميلاده، ﷺ. حتى أنهم ذهب بهم الخيال، فيما أرى، إلى حدّ أن ذكروا لكل شهر من أشهر حمله خوارق، ورؤى...

وهذه مرويات لها جهتان: الرواية، والدراية:

أما من حيث الرواية: فلم تثبت من طريق جازمة، ولو كانت

جازمة، لما تشكك كثير من القرشيين فى نبوته. ولو كانت جازمة، لاهتدى إليه فى طفولته، ومنذ مولده، أولئك الذين جابوا الأرض بحثاً عن النبى المنتظر.

ومن المقطوع به عقلاً، أنه ولد مع النبى أطفال كثيرون، فإذا استطاع المسلم أن ينسب هذه الخوارق، إن صحت، إلى ميلاد النبى، فإن غير المسلم يستطيع أن ينسبها إلى غيره.

وإذا صحت رواية هذه الظواهر، فهى ظواهر طبيعية تحدث كثيراً وربطها بميلادٍ معين، يحتاج إلى دليل خاص. وقد رفض الرسول ربط خسوف الشمس بموت ولده إبراهيم(١).

أما العلامة التى لاالتباس فيها، ولا سبيل إلى إنكارها فهى:

علامة الكون، وعلامة التاريخ:

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى الرسالة!.

وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ(٢).

وأما من حيث الدراية، فإن موضوعها، الخوارق، مما لم يقمه الإسلام دليلاً على ذاته. ذلك الدليل المادىّ الموقوت بزمنه، على مكانه، وعلى من شاهدوه.

---

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول، لأستاذنا د. عبد الفتاح شحاته ص٢١٧.
(٢) عبقرية محمد.

الثانى :

إننا لايصح منا الاقتصار على ذكر هذه الخوارق، مع فرض صحتها، والتغنى بمدح الرسول بها.

إن النبى، ﷺ، كامل فى صفاته، ممتاز برسالته، فريد فى دليل هذه الرسالة: القرآن، المعجزة الخالدة. وماأغنى رسالته وشخصه عن تكلف هذه الأشياء التى لم يقم عليها دليل.

وقد أرى كثيراً من المتكلمين فى الدين، يقتصرون فى كلامهم، فى هذه المناسبة، على ذكر تلك المرويات، وإثارة مشاعر العامة بها، مجاراة للعامة، أو تقرباً للخاصة. بينما نحن، إذا كنا مصرين على هذه الاحتفالات — فى حاجة إلى توجيهها الوجهة السليمة، فننقيها من البدع، ونجدد بها صلاتنا بالدين، وصفات نبيه.

أما الاقتصار على هذه المرويات، فهو قتل للدين الحق فى النفوس، وتكثيف لحجاب الباطل، ونشر لظلام فوق ظلام!

لذلك نحن الآن أمام اتجاهين:

الأول: الاقتصار على سرد تلك المرويات، وإثارة مشاعر العوام بها، من غير مبالاة بتمحيصها، مادمنا حققنا تحريك وجدانهم.

الثانى: هو التعرف على خصائص الرسول، وحقيقة رسالته، ثم نقايس بين خصائصه، وحقائق دينه، وبين مانحن عليه، فنرشد، والله تعالى يقول «**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**» انتبهوا من فضلكم، «**لأولى الألباب**» فأصحاب العقول الخالصة هم الذين يأخذون من قصص الأنبياء عبراً لحاضرهم. وقد قيل فى التاريخ عامة: إنه دراسة الحاضر على ضوء الماضى، لأجل المستقبل.

٢ ــ لماذا نختار سورة الكوثر؟

ــ ولأن الحديث نص على أن الرسول ذبح شكراً.
ــ ولأن العقيقة سنة ثابتة، شكراً عن المولود.
ــ ولأن النسك من شعائر الإسلام فى الحج خاصة.
ــ ولأن الله أمر به نبيه شكراً على نعمته عليه فى قوله: «**فصل لربك وانحر**».. لذلك تكون سورة الكوثر مناسبة لاختيارها حديثاً فى ذكرى مولد الرسول ﷺ.

والشكر خلق كريم محمود فى الطبع، ومحمود فى العقل، ثم جاء الشرع مقراً له، مقرراً للثواب عليه.

٣ ــ سبب النزول: (ثلاث حوادث وأربعة أحاديث):

أ ــ لما مات القاسم ذهب أبو لهب إلى قريش فقال: بتر محمد الليلة.

ب ــ وكان العاص بن وائل إذا ذكر النبى ﷺ يقول: دعوه، فإنه رجل أبتر، لاعقب له، فإذا هلك انقطع ذكره.

جـ ــ وقدم كعب بن الأشرف من المدينة إلى مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبور[1] المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية ؟!، فقال: أنتم خير منه.

وأصل معنى كلمة البتر:

القطع، ثم شاع فى بتر الذنب، واستعمل فى انقطاع الذرية فدلالة أصل اللفظ. وهذه الحوادث الثلاث تدل على أنهم أرادوا من وصف الرسول بالأبتر:

ــ انقطاع ذكره بموت ولده.

ــ وانقطاع ذكره بانقطاع دعوته بعد موته. فردّ عليهم الله.

سنة إلهية:

وتلك سنة لله تعالى فى القرآن الكريم، وإكرام للرسول ﷺ: أنه كان يتولى الرد عنه ﷺ:

---

(١) الصنبور: الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر. (قاموس)
والصنبور: الذى لاعقب له «كتاب الفوائد» ص٢٥٤

— كما رد على أبى لهب حين سب الرسول بقوله: تبت يداك.. فنزلت سورة اللهب «**تبت يدا أبى لهب وتب**...» من غير حكاية لقوله.

— وكثيراً مايحكى أقوالهم نفسها عن الرسول، ثم يرد عليها. كقوله: «**وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام، ويمشى فى الأسواق، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً. أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها. وقال الظالمون: إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً. تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك: جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً. بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً**».

والأسوة فى ذلك:

أن يتجاوز المشتوم عن مماثلة شاتمه، لايقابل جهله بجهل، وعند ذلك يتولى الردّ عنه الله تعالى:

اختصم بين يدى النبى ﷺ رجلان. فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت[1]. فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبى ﷺ فقال: يارسول الله، لما رددت عليه بعض قوله قمت! فقال: كان الملك يدافع عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان، فلم أكن لأجلس.

---

(١) الساكت أبو بكر الصديق. ــ الجواب الكافى ص١٢٣

أ ــ أما قصة موت القاسم:

فقد روى أن القاسم مات رضيعاً، ودخل النبي على خديجة وهى تبكى لموته، فقالت: يارسول الله، لقد دَرّت لُبَيْنَةُ القاسم، فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه لهوّن عليّ. فقال: إن شئت أسمعتك صوته فى الجنة. فقالت: بل أصدق الله ورسوله(1).

ب ــ روى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى، واللفظ لأحمد عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ إنه أنزلت عليّ آنفاً(2) سورة فقرأ: **بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر**. فقال: هل تدرون ماالكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هو نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة(3)، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يارب إنه من أمتى فيقال: إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك!.

---

(1) هامش ابن هشام جـ1 ص190

(2) قلت ذلك آنفاً وسالفاً (صحاح)

(3) يفسر هذا ماروى من أن الكوثر له ميزابان يصبان فى حوض النبى فى المحشر.
(يختلج) ينتزع ويقتطع، والمراد: يمنع من الحوض، والحديث يدل على أن من أمته من لايستحق إكرامه ولا شفاعته، وفى رواية البخارى: فأقول: سحقاً سحقا لمن غير بعدى. (الفتح جـ11 ص400)

جـ ـ وروى البخارى ومسلم عن أنس قال: لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء، قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف، فقلت ماهذا ياجبريل؟ قال: هذا الكوثر (١).

د ـ وروى ابن جرير عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبدالمطلب يوماً، فلم يجده، فسأل عنه امرأته، وكانت من بنى النجار، فقالت: خرج يانبى الله آنفاً عامداً نحوك، فأظنه أخطأك فى بعض أزقة بنى النجار. أولا تدخل يارسول الله؟ فدخل، فقدمت له حيساً (٢)، فأكل منه. فقالت: يارسول الله، هنيئاً لك ومريئاً، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك، فأهنيك وأمرّيك، أخبرنى أبو عُمارة أنك أعطيت نهراً فى الجنة يدعى الكوثر. فقال: أجل، وعرضه ـ يعنى أرضه ـ ياقوت، ومرجان، وزبرجد، ولؤلؤ!!

مكية أم مدنية؟

من ذكر أسباب النزول نرى أن السورة يجوز أن تكون مكية، ويجوز أن تكون مدنية، لذلك اختلفت كلمة العلماء فيها. فقيل مكية، وقيل مدنية، وصوّبه السيوطىّ فى الإتقان، ورجحه النووى فى شرح مسلم. وليس عندى ماأرجح به بين القولين.

---

(١) اللفظ للبخارى، وفيه: قباب اللؤلؤ، مجوّف بدون ال جـ٨ ص٥٩٥ من فتح البارى. و(قباب اللؤلؤ المجوّف) بأل فى جـ١١ ص٣٩٩

(٢) تمر يخلط بسمن وأقط

٤ ـــ مكانة السورة، ومقصودها:

ومقصود السورة: بيان منة الله على رسوله ﷺ، وبيان مايجب عليه ﷺ شكراً على هذه المنة، إذ اجتمع له ﷺ فى هذه السورة النعمتان الكبريان، والغبطتان السنيتان:

أعظم عطاء، من أكرم معط!!

فى أتم حالات النبى ﷺ: عند لقاء ربه، فرأى مارأى، وهو فى حال البقاء، وكان حال موسى، عند لقاء ربه، حال الفناء، ولهذا خرّ صعقاً عند تجلّى الله للجبل. فكانت حال البقاء أكمل.

والفناء هو الغاية المطلوبة عند القوم!، وهو عند بعضهم لازم من لوازم الطريق، وليس بغاية. وعند آخرين، عارض من عوارض الطريق، وليس بغاية ولا هو لازم لكل سالك.

وأهل القوة والعزم لايعرض لهم وحال البقاء أكمل منه!!

وهذه اليقظة توجب للعبد شهود المنة، فتوجب عليه نوعين من العبودية:

ـــ محبة المنعم.

ـــ والاعتراف بالتقصير.

وقد تضمنهما حديث سيد الاستغفار أن تقول «اللهم أنت ربى، لاإله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك

ماأستطعتُ، أعوذ بك من شرّ ماصنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت». فقد جمع بين جميع مقومات العبودية.

ـــ ونعم الله على عبده من حيث الوجود: ثلاثة:

ـــ نعمة حاصلة هو يعرفها.
ـــ ونعمة غير حاصلة هو يرجوها.
ـــ ونعمة هو فيها، وهو غافل عنها.

ففضل الله على العبد في النعمة الحاضرة التي يعرفها:

أن يقيِّدها بالشكر، ولا يشرِّدها بالمعصية. ومن أخطرها:

أن يحسب أنه استوجبها بميزته، لابمنة الله، فيقول مقالة قارون: «**إنما أوتيته على علم عندي**». أو مقالة الغافل «**هذا لي**» «**ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي، وما أظن الساعة قائمة، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ**»، وهكذا تشغله النعمة عن المنعم، فينسى الشكر. كما تنسى الصنعة بعضهم عن الصانع فينسى الذكر.

لذلك:
حض الله نبيه على الشكر، وجمع الله له في هذه السورة:

الطاعة بالقلب، فقال: لربك،
والطاعة بالبدن، فقال: فصل،
والطاعة بما يملك، فقال: وانحر.

وفضل الله على العبد فى النعمة التى يرجوها:

أن يعرف العمل الذى يجلبها:
أـ فيحصّل المقتضى. ويعرف الطريق الذى يسدها:
بـ فيتجنّب المانع.
جـ وأن يُوفّقه أن يطلبها ممن هى فى يده.

والعبد ليس له ملك على الحقيقة، إنما هو مستخلف بوضع اليد فقط، مدة من الزمان.

وأما الملك الحق فهو لله وحده، الذى بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون. وعنده خزائن كل شيء «**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم**».

دـ وكما يوفقه أن يطلبها ممن هى فى يده حقاً، وهو الله، يطلب أن يوفقه إلى أن يصرفها لغايتها التى هى لها: وهو الله، فهو غاية كل شيء، لذلك قال له فى هذه السورة «**فصل لربك**» أى اجعل صلاتك خالصة له، إذ هو غاية كل شيء، وإليه منتهى كل شيء، فليس وراءه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى، فهو مصدر كل نعمة، وهو غاية كل شيء.

وقد جمع الله كل شيء يراد منه فى قوله «**وإن من شيء إلا عندنا**

خزائنه».

وجمع كل شيء يراد له في قوله «وأنّ إلى ربك المنتهى».

ـــ أما فضل الله على العبد في النعمة التي هو فيها ولا يعرفها:

أن يطلب منه التوفيق إلى معرفتها. وأكثر الناس ينسون نعم الله عليهم، وهم غارقون فيها إلى الأذقان والآذان، ولا يعرفونها إلا بعد فراق، لذلك قال القائل:

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت في غيره بكيت عليه

ولما طلق الفرزدق امرأته: النّوار، وكانت ابنة عمه، قال:

ندمت ندامة الكسعيّ لما ... غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنة فخرجت منها ... كآدم حين أخرجه الضرار
وكنت كفاقىء عينيه عمداً ... فأصبح مايضيىء له نهار
ولو ضنت يداى بها ونفسى ... لكان على للقدر الخيار
وما فارقتها شبعاً ولكن ... رأيت الدهر يأخذ مايعار

وبسبب هذه الغفلة:

يوجد الله في الناس النقم: في أنفسهم، وفي الناس، وفي الكون، ليذكروا نعمه: يريك الأعمى لتذكر نعمة البصر. ويريك المرض لتعرف نعمة الصحة. ويريك الزلازل والصواعق لتعرف منته في الإنجاء منها.

ونعم الله سبحانه من حيث الاستمرار والتجدد:

مستمرة — ومتجددة:

أما النعمة المستمرة:

شكرها بالعبادات والطاعات، ومداومة ذكر الله، وشكره، وتدبر تصريفها فى الذى يحبه، وعدم الغفلة عن أنه صاحبها، حتى لاينسيه الإلف الله الذى أنعم بها، فيقع فى (الغفلة) التى هى أولى دركات البعد عن الله، فيجره ذلك إلى الانحطاط إلى بقية الدركات: المعصية — البدعة — الكفر والشرك!.

وأما النعمة المتجددة:

فلها سجود الشكر، شكر الله عليها، وخضوعاً له، وذلاً فى مقابلة فرحة النعم، وانبساط النفس لها. وهذا الفرح من أكبر أدوائها (جمع داء) فإن الله سبحانه لايحب الفرحين، ولا الأشرين، فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين، وكان فى سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ماليس فى غيره. ولذلك:

خرج النبى نحو أُحُدفخر ساجداً، فأطال السجود. ثم قال: إن جبريل أتانى، وبشرنى فقال: **إن الله تعالى يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله تعالى شاكراً.**

وكحديث أبى بكرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا جاءه أمر يُسَرُّ به خرّ ساجداً شكراً لله تعالى.

وأتاه بشيرٌ يبشرّه بظفر جند له على عدوهم، فقام وخرّ ساجداً.

وسجد أبو بكر حين جاءه قتل مسيلمة الكذاب.

وسجد عمر حين أمر أبا سفيان أن يعيد علامة أرض بينه وبين جارٍ له، كان قد غيرها لمصلحته. أمره عمر أولاً، فتثاقل، فعلاه بالدرة، وقال له: إنك لقديم الظلم، اذهب فارجعها، فلما امتثل، خرّ عمر ساجداً وقال: الحمد لله الذى جعل سيد المدر يطيع عمر.

ونظير هذا السجود:

السجود عند آيات الله التى يخوف بها الله عباده، كما فى الحديث: «إذا رأيتم آية فاسجدوا».

وقد فزع النبى ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلى الصلاة، وأمر بالفزع إلى ذكر الله.

ولهذا، لما بلغ فقيه الأمة، وترجمان القرآن: عبدالله بن عباس موت (ميمونة) زوج النبى ﷺ خرّ ساجداً. فقيل له: أتسجد لذلك؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا» وأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبى ﷺ من بين أظهرنا.

* * *

٥ ـ مكان السورة:

دلت السورة بمعناها على الشاكر والجاحد. وبهذا التضاد، وتلك المقابلة، وضعت السورة موضعها مما قبلها وما بعدها. فدلت بمكانها، على مادلت عليه مكانتها.

قبلها سورة «الماعون»، وبعدها سورة «الكافرون».

أما سورة «الماعون»:

فقد ذكر فيها للمكذِّب بالدين عملاً، القائم به شكلاً: أربع صفات:

الذى يدع اليتيم.
ولا يحض على طعام المسكين. ويرائى، ويمنع الماعون.
فهو لايرحم الضعيف.
ولا يشجع على الخير.

فذكر فى مقابلة: **إنا أعطيناك الكوثر**
والذى يسهو عن صلاته، ذكر فى مقابله «**فصل**»
والذى يرائى، ذكر فى مقابله «**لربك**»
والذى يمنع الماعون، ذكر فى مقابله «**وانحر**»[١].

---

(١) تفسير الفخر الرازى، والإتقان جـ٢ ص١١٢

وأما سورة «الكافرون»:

فلما بيّن **المفاضلة** بينه وبين شانئه، فى سورة الكوثر، فالنبى موصول الفضل، وشانئه مقطوع الدابر — أعلن فى سورة «الكافرون» **المفاضلة** بينه وبينهم «**لكم دينكم ولى دين**».

٦ — معانى السورة :

(إنا أعطيناك الكوثر)

خطاب : المخاطب هو الله، والمخاطب هو الرسول. وخطاب الله فى القرآن على أنواع، منها :

— خطاب الذم، ومنه «**يأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم إنما تجزون ماكنتم تعلمون**» ولم يتكرر نداء الكافرين من الله لهم فى غير هذه الآية.

— خطاب الهوان والإذلال، ومنه «**إنّ عليك لعنتى إلى يوم الدين**»، ومنه «**اخسئوا فيها ولا تكلمون**» [1]

وقد ذكر فى كتب الأدب أن الحجاج الثقفى مر بسجنة (الديماس)، فاستغاثه المسجونون، فتمثل بقوله تعالى «**اخسئوا فيها ولا تكلمون**» فأخذه الله فى أسبوعه.

---

(١) الخطاب فى القرآن على مائة وعشرين قسماً جمعها صاحب (كتاب الفوائد) ص ٢٥٦

وهكذا كل من نازع الله خصائص الألوهية فلو قال أحد مقالة فرعون «**أنا ربكم الأعلى**» لحق عليه قوله «**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**».

كالذى قال: لايبدل القول لدىّ، فأخذه الله وهو فى أعز مقاماته، وأمنع مسلحته!! وفى ذلك عبرة لمن يخشى.

— **وخطاب كرامة**: ومنه قوله تعالى «**يأيها الذين آمنوا...**» ومنه «**إنا أعطيناك...**».

وهنا تكريم خاص:

هو خطاب الرسول بكاف الخطاب، الدال على شخص المخاطب، لاعلى صفته ووظيفته.

وهذا يدل على أن إعطاء الله إياه ماأعطاه، إنما هو محض اصطفاء، واختيار خالص من الله إياه.

ولو أنه قال: يأيها النبى إنا أعطيناك، أو يأيها الرسول، لكان متضمناً تعليل الإعطاء بالنبوة أو الرسالة، لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلّيّة الاشتقاق، كما يقول علماء أصول الفقه. لذلك كان خطابه بالنبوة والرسالة متبوعاً بما هو من شأنهما. أما ماهنا «**أعطيناك**» فهو اختيار لذاته، ولو كان معللاً بالنبوة والرسالة، وهما مما أعطاه، لكان تعليلاً للشيء بنفسه، وهو محال، إذ يكون المعنى: إنا أعطيناك الرسالة، لأنك رسول. بخلاف قوله «**يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**» إذ المعنى:

بلغ لأنك رسول، لذلك قال له: «**وإن لم تفعل فما بلغت**» أى تكون مقصراً فى مقتضى الرسالة.

وكذلك قوله «**يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً**» فهذا التمتع لايليق بزوجات (محمد) لامن جهة شخصه، بل من جهة أنه نبى، لذلك قال لهن: «**لستن كأحد من النساء..**» ولذلك أيضاً تهددهن بمضاعفة العذاب «**يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين..**». فلأنهن أزواج النبى فعليهن أن تكون معيشتهن كفافاً، ولأنهن أزواج النبى فلهن عذاب مضاعف إن أتين بفاحشة مبينة.

وكذلك كانت عيشة الراشدين من بعده ﷺ.

ولأن هذا الإعطاء اصطفاء شخصى ذكر لفظ (أعطينا) دون (آتينا)، لأن الإعطاء، عادة، يكون بغير مقابل. ومنه أخذ لفظ (العطية). ويمدح بها فيقال: فلان جزيل العطية.

ولأنه، أيضاً، يدل على السماح واليسر فى الإعطاء، ولذلك قيل للمستسلم: أعطى بيديه.

فإذا كانت (العطية) على غير صفتها من المبادرة، والسماح، واليسر، تناقض أداؤها وصفتها، فلا تكون مقبولة، كما قيل:

إذا نلت العطية بعد مطل — فلا كانت، وإنْ كانت جزيلة

وسقـيا للعطـية ثم سقـيا إذا سهلت وإن كانت قليلة

والعطاء، أيضاً، يشمل الكثير والقليل.

منه فى الكثير قوله تعالى ـــ فى ملك سليمان ـــ : «**هذا عطاؤنا**» ومنه، فى القليل قوله تعالى : «**أعطى قليلاً وأكدى**» : يعنى : أنه مع إعطائه القليل قطعه، ولم يدم عليه.

فكأن الله تعالى قال : إنا، يامحمد، أعطيناك الكثير فى ذاته، منة وكرماً واصطفاء، ومع كثرته فى ذاته، فهو قليل بالنسبة لما سوف نعطيك، فما زالت عطايانا تأتيك فى دنياك وأخراك «**ولسوف يعطيك ربك فترضى**».

أما (الكوثر) :

فقد ذكر له المفسرون ستة وعشرين قولاً.

والموقف الصحيح، للاهتداء إلى مدلول لفظ قرآنى، أن نرجع إلى أمرين :

ـــ استعمال اللفظ فى أصل اللغة، لافى أقوال المفسرين.

ـــ ثم إلى أقوال السلف فيه من الصحابة وتابعيهم، إن وجد وبتطبيق هذين يتبين لنا :

ـــ أن (الكوثر) (فوعل) اشتق من الكثرة، فاللفظ بمصدر اشتقاقه، وهو الكثرة، وبصيغته ووزنه (فوعل) دليل واضح على

الدلالة على الكثرة المبالغ فيها.[1]

ـــ والمأثور دلّ على أن معنى (الكوثر) نهر فى الجنة. فيكون المعنى: أعطيناك الخير الكثير، الزائد فى الكثرة على العادة، ومن هذا الخير الكثير ماادخرناه لك فى الجنة، وهو نهر الكوثر.

والذين صوّبوا تفسيره بالنهر فقط[2] فاتهم أمران:

الأول: المدلول اللغوى فى أصل استعمال اللفظ.

الثانى: الإشارة إلى مادل عليه اللفظ، من الكثرة، فيما روى من حديث الإمام أحمد، إذ قال ﷺ: «هو نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير» ص١٤ فلم يبينه الرسول ﷺ بالنهر فقط، بل: نهر عليه خير كثير.

ثم يؤيد مااتجهتُ إليه ماروى عن ابن عباس فى تفسير (الكوثر): فقد قال: إنه الخير الكثير. قال أبو بشر لسعيد بن جبير: إن ناساً يقولون: إنه نهر فى الجنة؟ قال سعيد بن جبير: هو من الكوثر[3].

فهذا سعيد بن جبير، نقل عن ابن عباس تفسير (الكوثر) بالخير الكثير، وجعل النهر من الخير، وبين لأبى بِشْر أن قول من قال: إنه النهر، لايتعارض مع قول ابن عباس، بل هو أحد أفراده.

---

(١) قيل لأعرابية رجع ولدها من سفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بالكوثر.

(٢) فتح البارى جـ٨ ص٥٩٦

(٣) فتح البارى جـ٨ ص٥٩٥، جـ١١ ص٣٩٦

فالتفسير المأثور، واللغة، تطابقا على أن المعنى: الخير الكثير.

وتفسير الكوثر بما اخترته، مع مطابقته للغة والمأثور عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، هو أيضاً، يطابق واقع ماأعطاه الله رسوله، وما سوف يعطيه.

ماهذا الذى أعطاه الله الرسول؟

من البدهىّ أن عدّ ذلك، وبيان فضله يحتاج إلى بحوث وبحوث، وياليت ذلك يوفّى بالحق، ويقوم بالبيان الكاشف، فحسبنا فى هذا المقام ذكر بعض ماأعطى الله نبيه، مما يشير إلى ماسواه، ويدل عليه، دلالة تضمّن، أو دلالة التزام، إذا عجز بيانى عن دلالة المطابقة:

أ ـ فضل الله عليه بالنبوة والرسالة: (١)

وهذه المنزلة أعلى منازل المقربين، ومنازلهم أربع:

أعلاها النبوة، ثم الصديقية، ثم الشهادة، ثم الصلاح. بيّن الله ذلك فى قوله: «**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**».

وخص الأنبياء فى قوله «**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين**

(١) الرسول: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام. وهو بهذا التعريف يساوى النبى. والجمهور على أن النبىّ أعم، إذ يشترط فى الرسول (الكتاب) أو الشرع المجدد ـ راجع العقائد النسفية ص ٣١ بحاشيتى العصام والخيالى.

من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ...».

فالنبوة اجتباء، واصطفاء محض، لاكسب فيها للعبد، يختار الله لها من يشاء من عباده، ممن جعل قلبه أهلاً لهذا الإكرام، «**الله أعلم حيث يجعل رسالته**».

ومهما كان العبد عبقرياً، ومهما اجتهد فكراً وروحاً فلن يكسب النبوة، أو يساوق منزلتها. كما زعمت الفلاسفة، فى قولهم: إن الرسالة ليست بإرسال من الله، بل بخواص ثلاث:

أولها: الاتصال بالمجردات العقلية (العقل الفعّال من العقول العشرة) مما يمكّن من الاطلاع على الغيب.

ثانيها: القدرة على التصرف فى «هيولى»[1] العناصر، مما يمكّن من إظهار خوارق العادات.

ثالثها: رؤية الملائكة، وسماع كلامهم[2].

ب ــ فضل الله عليه بالقرآن:

لقد أيّد الله الرسل، قبل محمد ﷺ بآيات ماديّة، يدركها المرسل إليهم إدراكاً حسياً، يستخذى له العقل، ويخضع له الشعور، ولا يجد

(١) لفظ من مصطلحات الفلسفة بمعنى: المادة التى تتكون منها الأشياء قبل أن تأخذ صورة معينة.

(٢) العقائد النسفية بشرح التفتازانى وحاشية الخيّالى وجميع كتب العقائد قسم النبوات.

العقل لنفسه معها طريقاً، فهى ليست من مجالات عمله، لذلك كان للناس فيما يرونه من هذه الخوارق الكونية، طريقان:

— منهم من يسندها إلى القوة الغيبية العليا.

— ومنهم من يسندها إلى الأسباب الخفية التى يسمونها السحر.

لذلك ضلت الأمم فى آيات الأنبياء السابقين(١).

وهذه الآيات المادية، المحسوسة هى التى سماها الفيلسوف ابن رشد «بالدليل البرانىّ» بمعنى: الخارج عن الدعوة، ليست دلالته فى ذات الدعوة، وبيان حقائقها. ومن ثَمَّ كانت أدلة موقوته بزمانها، قاصرة على من شاهدها.

ولهذا لم يرض الله تعالى أن تكون براهين رسالة محمد تلك الآيات المادية، وبيّن أنهم لو جاءتهم لما زادتهم إلا جحوداً، لأن مصدر طلبهم إياها إنما هو التعنت والجحود، فقال: «**ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**».

ثم إن هذا الإسلام دين هو خاتم الأديان، وهو دين عام خالد. فلزم أن يكون دليله من جنسه، عاماً وخالداً. يحمل حقائق الرسالة، ويكون دليل صدقها، تشهد له —القرآن— بأنه حق، وصدق. ويشهد القرآن لها بأنها حق، وصدق، وعدل. وتصبح الدعوى

(١) تفسير المنار جـ١ ص٤٤١

بدليلها حقيقة واحدة، فصدق الدعوى يشهد له القرآن، وصدق القرآن تشهد له الدعوى!! وهذا شيء اختص الله به رسالة محمد عليه الصلاة والسلام:

— فدليل الرسل قبله آيات كونية.

— وما آتاهم من وحي كلاميّ: لم يكن للإعجاز، ولم يتحدَّ به، ولم يضمن له البقاء، وكان كلمات، أو مادون الكتاب: «**فتلقى آدم من ربه كلمات**» «**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات**» «**صحف إبراهيم وموسى**»، والإنجيل تابع للتوراة «**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**» وكل ذلك طواه النسيان، أو عدا عليه الدهر:

إما بالتحريف والتأويل.

وإما بالتبديل.

وإما بالكتمان.

وبقى القرآن مصدقاً للحق الذى فى تلك السوابق، وأميناً عليها «**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ...**».

ومحفوظاً بكفالة الله «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» يتلو تحديه على الناس كافة «**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**».

وهو الشفاء والرحمة «**وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**».

القرآن شفاء، ورحمة.

أما العسل فـ(فيه شفاء)!!

جـ- فضل الله عليه بالفاتحة:

هى فاتحة الكتاب. وفاتحة الكتاب مفتاحه الذى يشرح موضوعه.. وهى جامعة معانيه: فكل مافيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها. لابمعنى الإشارة، ودلالة الحروف، كقولهم: إن أسرار القرآن فى الفاتحة، وأسرار الفاتحة فى البسملة، وأسرار البسملة فى الباء، وأسرار الباء فى نقطتها!!.

فإن هذا لم يثبت عن النبى وأصحابه، ولا هو معقول فى نفسه، ويتعارض مع وصف القرآن «**بلسان عربى مبين**»، ويتعارض مع حقيقة تاريخية هى أن الصحابة كتبوا المصحف بدون تنقيط.

ويشبه أن يكون هذا القول من أقوال الغلاة الذين سلبوا القرآن خاصية البيان والإرشاد والهداية، وجعلوه عضين، ورموزاً للتبرك، والطلاسم.

ولعل أحسن ماروى فى ذلك، ماروى عن الحسن البصرى أنه قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب من السماء، أودع علومها فى أربعة منها: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان. ثم أودع علوم القرآن المفصّل. ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب. فمن علم تفسيرها

كان كمن علم تفسير كتب الله المنزَّلة[1].

وهذا معقول مقبول:

ــ لأن القرآن مصدق للكتب قبله، ومهيمن عليها.

ــ ولأن الفاتحة، عند التدبر، جمعت مقاصد القرآن: وقد أوضح الغزالى ذلك فى (جواهر القرآن):

فمقاصد القرآن الرئيسة ستة:

ــ بيان مبدأ الخلق، وهو (الله) وتوحيده، وصفاته.

ــ بيان المصير إليه فى الدار الآخرة.

ــ بيان الطريق الموصلة إلى رضاه فى الدنيا والآخرة.

وهذه مقاصد رئيسة، يتبعها ثلاثة توابع:

ــ بيان جزاء المؤمنين بالله الموحدين، ولطف الله بهم فى الدنيا والآخرة.

ــ بيان جزاء الكافرين ونكال الله بهم فى الدنيا والآخرة.

ــ بيان الطريق المستقيم فى العبادة والمعاملة لتسلم دنيا الناس فيتمكنوا من أداء وظيفتهم الأولى التى من أجلها خلقوا.

وجزى الله حُجَّة الإسلام جزاء المقربين لما كشف عن هذا السر، بهذا التفصيل الدقيق الجامع[2].

---

(١) بصائر ذوى التميز جـ١ ص١٣١

(٢) راجع أيضاً فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ٨ ص١٢٧

ولعل هذا، والله أعلم، هو السر فى اختيارها للصلاة، حتى ورد فى الحديث القدسيّ الذى رواه مسلم تسميتها (بالصلاة): «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين: إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الله تعالى: سمّانى عبدى.

وإذا قال: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدنى عبدى.

وإذا قال: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى علىّ عبدى.

وإذا قال: مالك يوم الدين، يقول الله: مجدنى عبدى.

وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين: يقول الله: هذا بينى وبين عبدى نصفين.

وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، إلى آخر السورة، يقول الله: هذا لعبدى، ولعبدى ماسأل.

وأقول، أيضاً، يؤيد هذا: مارواه البخارى من وصف الرسول ﷺ إياها بأنها أعظم سورة فى القرآن: وعن أبى سعيد بن المعلّى[1] قال: كنت أصلى فى المسجد، فدعانى رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يارسول الله، إنى كنت أصلّى، فقال: ألم يقل الله: **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم**. ثم قال لى: لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن، قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدى. فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هى أعظم

(١) ليس له فى البخارى سوى هذا الحديث.

سورة فى القرآن؟. قال: **الحمد لله رب العالمين**. هى السبع المثانى، والقرآن العظيم، الذى أوتيته[1].

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم «**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**»: فُسِّر الفضل بالإيمان، وفسرت الرحمة بالقرآن.

د ـــ فضل الله عليه: بإظهار الإسلام:

كل من عاصر ظهور الدعوة، إلا من هدى الله.

وكل من يدرس الآن هذا الظهور، بصرف النظر عن الضمان الإلهى، وواقع التاريخ ـــ يجزم بأنها دعوة منتهية، وأن أقصى عمرها هو عمر الداعى إليها.

وهذا هو ظن الكافرين عندما وصفوا الرسول بأنه أبتر.

وهذا هو ظنهم عندما ترقبوا موته، لتموت الدعوة بموته «**أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين**».

وأى بصر كان يستطيع أن يمتد خارج الزمان والمكان ليقرأ صفحة غيب المستقبل، فيعلم أن نور الدعوة سوف يغمر الأرجاء؟!.

---

(١) صحيح البخارى: كتاب التفسير. الفتح جـ٨ ص١٢٩
وقوله «والقرآن العظيم» بيان لأن الفاتحة هى القرآن العظيم، وتكون «الواو» ليست عاطفة، بل للتفصيل كقوله «فاكهة ونخل ورمان»

ـــ إن الكلمة الفاصلة لأشراف قريش فى عتوهم ونفورهم.

ـــ وإن الداعى فقير، ذهب عنه النصير.

ـــ وإن الداعى عاداه أقرب أهله إليه، وهم الذين تأخذهم العصبية، والحمية الجاهلية، فينصرون أخاهم فى النائبات، حين يندبهم، لايسألونه برهاناً، ظالماً أو مظلوماً.

ـــ والذين آمنوا قلة، أكثرها من المستضعفين، الذين لايحميهم مال، ولا جاه، ولا عصبة.

ـــ والدعوة لاتتجاوز مكة.

ـــ والذين يأتون إليها، يخشون بأس قريش، أو تفسد عليهم ميلهم إلى الداعى.

ـــ والدعوة تحمل مخالفات صريحة واضحة لعقيدة القوم.

ـــ وتحمل من المبادئ مايأباه عليهم كبرياؤهم الموروث.

ـــ وتحمل من الفضائل مايعزّ على شهواتهم أن يتبعوه.

ـــ والدنيا كلها مطبقة على الكفر، وانحطاط القيم، واستعباد الإنسان...!.

فأنى لهذا الصوت، الوحيد فى ضعفه، الضعيف فى وحدته، المعدوم النصير، المعادَىٰ ممن يُظن منه العون، الغريب بعقيدته، ومبادئه، وفضائله، المحاصر فى شعاب مكة. أنى له، وهذه حاله، أن

ينفذ إلى قلوب الناس، وقلب الدنيا؟.

إن ذلك فوق قدرة الخيال، فما بال الفكر والواقع!!.

وعلى رغم كل هذه الموانع. وعلى كرهٍ من هذه العقبات. وعلى أسى المعاندين، وأسفهم (جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون)، واختار الله له تلكم الصفوة المصفاة، من أصحاب النبى، ليكون على أيديهم هذا الشرف العظيم، وتمت كلمة الله.

فبعد أن خرج الرسول من مكة، مطاردا، لو ظفروا به لقتلوه، عاد إليها منتصراً بفضل الله.

لذلك، لما قايس ﷺ بين يوم الفتح، الذى قال الله فيه: «**إذا جاء نصر الله والفتح**..» وبين يوم خروجه، الذى قال الله فيه: «**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**..» — لمّا قايس ﷺ بين هذين اليومين، دخل مكة ساجداً على مقدّم الرحل!!.

يالعظمة الحق يُزهق الباطل، ويدمغه!

ويالعظمة النبوة تتواضع فى أزهى ساعات النصر!

ويا لجلال الخُلُق حين قال المطرود، المطارد، وقد عاد عزيزاً تُرعد لقوته الأبطال، لشانئيه، وحاسديه...: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ألا ماأسمى المثل الإنسانىّ الكامل المتمثل فى شخص محمد ﷺ!

هـ— ومن فضل الله عليه:

أن أبقى ذكره، وأوجب شرعه. فدينه فريضة، لايخرج عنها إلا خاسر. وشرعه، هو الصراط المستقيم، من تركه فإن له معيشة ضنكاً، فى الدنيا، ويحشر يوم القيامة أعمى، وكذلك اليوم ينسى.

وهذا ذكره باق فى العالمين: مسلمهم وكافرهم على السواء، له حظ «العَلَم» من الجند، يقتتلون حوله.

ولا يزال الناس على كرّ العصور، ومَرّ الدهور، يدرسون سيرته، يستخرجون منها كنوز المعارف، وعوارف المعارف، التى يتضاءل بجانبها كل ماعرفت الإنسانية من فكر ودين!.

وهاهى ذى الدنيا اليوم تذكر محمداً، ويتعبد على دينه فى أرجاء الأرض:

أفريقيا: فى شرقها وغربها، وشمالها وجنوبها.
آسيا: من غربها إلى قلب الصين، وجزر اليابان والفلبين.
وأوربا: تقام فى كبرى عواصمها المساجد الجامعة.
وأمريكا: يغزو الإسلام فيها الزنوج.

وإذاعات العالم كله تتلوا القرآن الكريم.

وعلى رغم الكيد المسيحى، والصيهيونى، واليهودى، والإلحادىّ: فإنه باق...

ولسوف يظل هذا الدين باقياً مابقى الدهر، دائماً مادامت السماء والأرض، حياً ماطلعت الشمس.

ولسوف يظل محمد مثلاً فريداً فى كمال ذاته، وكمال دينه.

وإننى لأعتقد اعتقاداً لاريب فيه أن البشرية فى يومها، أو فى غدها سوف تنتهى إلى الإسلام، مهما بعدت عنه «بدأ الإسلام غريباً، وسوف يعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»!!.

فدين محمد عام خالد — وذكره فى فم الدنيا.

قال ﷺ:

سألت ربى مسألة وددتُ أنى لم أكن سألته: سألت ربى: اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً. فقال: يامحمد، ألم أجدك يتيماً فآويتك، وضالاً فهديتك، وعائلاً فأغنيتك. وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وررك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا وتذكر معى(١).

و — ومن فضل الله عليه:

ماسوف يعطيه فى الآخرة، مما هو فوق علمنا: من المقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة: التى هى منزلة فى الجنة، لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله، رجا الرسول أن يكونه. وهى التى نطلبها للرسول عقب كل أذان.

(١) السيرة الحلبية جـ١ ص٢٤٨

طلب منه، فى مقابل هذا الفضل العظيم، ماتم منه وكان، وما سيكون — الشكر عليه، واختار له من وسائل الشكر أمرين:

— الصلاة.

— والنحر.

أما الصلاة:

فاشتقاقها: إما من الصلة، إذ تصل بين العبد وربه، فى خشيته.

وأنت تصلى فتقول: الله أكبر، وترفع يديك: تنفض كل ماسواه، وكأنك تخلع الدنيا كلها، وتبتعد عنها، لتقرب من الله، فى خشية.

وليس معنى أنه أكبر، أنه أكبر من غيره، إذ كال ما سواه قبس منه، وشعاع من نور جلاله وقدرته. وليس لنور الشمس مع الشمس رتبة المعية، بل رتبة التبعية. فهو، سبحانه وتعالى، المنفرد بالوجود الحق، وكل ما سواه من أثر قدرته. فليس فى الوجود إلا الله وفعله.

بل المعنى، والله أعلم، أنه أكبر من أن يوفى حقّه أحد، أو يقدر على حمده لسان مخلوق، إذ له الحمد، حمداً كثيرا طيبا طاهرا مباركا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء من شىء بعد. أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا له عبد، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع ...

وهو ، أيضا ، أكبر من أن ينال بالحِس ، أو يتصور بالحدس ، أو يدركه بعد الهمم ، أو يعقل ذاته خوْص الفِطَن ...

بل إنّ إدراك هذا العجز لا يدركه إلا نبى أو ولىّ :: أما الولىّ فيقول : العجز عن الإدراك إدراك . وأما النبى فيقول : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

أو يكون اشتقاق الصلاة :

من الصّلَىٰ :وهو : مقاساة حَرِّ النار .

ومعنى (صلَّىٰ) أزال حرّ النار . مثل مَرَّض : أزال المرض .

لذلك كله اختار له الصلاة ، فهى : صلة ، وهى : وقاية ولأن الصلاة ، كذلك جامعة :

للذكر والفكر وقراءة القرآن وفعل القلب وفعل الأركان .

لهذا قدر النبى الصلاة حق قدرها :

فكان يقوم بها الليل .

وإذا حَزَ به أمر فزع إلى الصلاة .

وكان يقول : أرحنا بها يا بلال .

وعرف قدرها الأولياء .

فلما غشى على عمر بن الخطاب بعد أن طعنه ابن ملجم ، قال عبد الرحمن بن عوف : فزّعوه بالصلاة .

وقال ابن دينار : إذا أردت أن يكلمنى الله قرأت القرآن ، وإذا أردت أن أكلم الله قمت إلى بالصلاة .

وجاء فى الحديث : « **إذا قال العبد** : **الله أكبر قال الله للملائكة** : **ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى . فإذا التفت قال** : **اسدلوه !!**

وقال الأسود بن سالم :

ركعتان أصليهما لله أحب إلىّ من الجنة وما فيها .

فقيل له : هذا خطأ !

فقال : دعونا من كلامكم : الجنة رضا نفسى ، والركعتان رضا ربى . ورضا ربى أحب إلىّ من رضا نفسى !!

(وانحر)

ذكروا فيه أقوالا ، منها :

— وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة !

— رفع اليدين عند افتتاح الصلاة —!

— استقبال القبلة

ومرجع هذه الأقوال إلى (النحر) الذى هو موضع القلادة من الصدر .

وكل هذه الأقوال ، وإن ساعدت عليها اللغة ، تكلف بعيد .

فإنه ، وإن ساعدته اللغة ، ينقصه :

النظر إلى المأثور من فعل الرسول ، وقوله ، وآيات القرآن .

والنظر إلى خصائص التراكيب العربية .

أما التركيب العربىّ فإنه يأبى عطف الشيء على نفسه ، إلا لغرض بلاغىّ خاص .

والتوجه إلى القبلة ، أو رفع يدين ، أو وضعهما على النحر ، كل ذلك داخل فى الصلاة ، وهو أمره بها بقوله(فصل) فلا موجب لتخصيص بعض هيئات الصلاة بالذكر ، إلا أن تكون له موجبات خاصة . وهى لا توجد .

وأما المأثور :

فقد نحر النبى ﷺ يوم حجه مائة ناقة ، نحر بيده ثلاثا وستين بعدد سنوات عمره ، ثم أمر عليا بنحر الباقيات .

وأما قوله : فإنه خطب فى عيد الأضحى فقال : **أول ما نبدأ به فى يومنا هذا ، نصلى ثم نرجع فننحر** .

وأما القرآن فيقول آمراً النبى ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾ .

والنحر فى اللغة فى اللبة كالذبح فى الحلق .

وهذا هو القريب الظاهر من الآية ، يشهد له اللغة ، وفعل الرسول وقوله ، وقول القرآن الكريم . وأيضا مقتضى التركيب !

وبهذا المعنى تكون الآية جامعة :

للعبادة الخاصة : الصلاة .

والعبادة العامة : النحر

وجامعة للركنين :

الذاتى : الصلاة .

والاجتماعى : الإعطاء .

وجامعة للحقيقتين :

المعنوية : الصلاة .

والمادية : المال .

وبهذا كله تتم المقابلة بين السورة ، والتى قبلها :

المكذب بالدين : يرائى فى صلاته .

ويمنع الماعون .

ونبى الله : يخلص صلاته لربه .

ويعطى من فضل ربه .

قال الحافظ بن كثير ، بعد سرد أقوال التوجه إلى القبلة ووضع اليدين : وكل هذه الأقوال غريبة جداً . والصحيح أن المراد بالنحر : ذبح النسك .

وقال إمام المفسرين ابن جرير :

والصواب من ذلك قول من قال : إن معنى ذلك : فاجعل صلاتك لربك خالصا ، دون سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك ، اجعله له دون الأوثان ، شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذى لا كفاء له ، وخصك به .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله ابن جرير فى غاية الحسن . وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظىّ ، وعطاء .

(إن شانئك هــو الأبتـــر)

هى مقابلة لما ســـبق :

فقد بين عطاءه الجم له ﷺ ، فظهر أنه موصول الخير ، دائم الذكر ، له المقام المحمود ، ولسان الصدق فى الدنيا والآخرة .

فمن الأبتر إذن ؟

إنه شانئه .

شانئه هو الأبتر فى حياته ، وفى مماته :

— يبتر عقله عن أن يعى الحق .
— ويبتر قلبه عن أن يبعثه على خير .
— وبتر لسانه ، فلا ينطق بالصدق .

- وبتر عمله ، فلا ينتفع بصالحة .
- وبتر وجدانه ، فعمى عن القيم
- وبتر من إنسانيته فهبط إلى درك الحيوان .
- وبتر من الفرائض ، فبعد عن الحقيقة المطلقة .
- وبتر من جميع القرب فلا يسيغ مذاقها لفساد عقله وقلبه .
- ويبتر علاقاته بالناس ، لأنها تقوم على النفع المجرد .
- ثم تبتر أخراه ، لنسيانه ربه ، وكذلك اليوم ينسى !!

وعلى مقدار ما يفيض الله على رسوله وأتباعه من نعمه ، ومننه ، تكون غضبته على أعدائه : معيشة ضنكا ، ويحشر يوم القيامة أعمى !

٧ — من أســـرار الســـورة :

وللسوة أسرار ، وإشارات يدركها ذوو البصائر ، الذين لا يقفون عند حد ظاهر اللغة ، بل يلهمهم الله تعالى من أسرار كتابه ، ويفهمهم من دقائقه ، مما لا يختلف مع ذلك الظاهر ، ولا يعارض حقائقه ، من ذلك ، أن قوله :

(إنا أعطيناك الكوثر)

يشاهد فيها جلال عظمة الله .
ويشاهد فيها عظيم كرمه على أوليائه .

ويشاهد فيها الخير كله فى يديه .
ويشاهد فيها ما يفتح من رحماته ، لا ممسك لها ...

وقوله (فصل لربك) :
يشاهد فيها الاشتغال بطاعة الله .
ويشاهد فيها إخلاص الطاعة لله .
ويشاهد فيها تدبير الله له ، وكفالته إياه .
ويشاهد فيها قربه من الله .
ويشاهد فيها استعاذته به من النار .

وقوله (وانحـــر)
يشاهد فيها تخليص النفس من هواها .
ويشاهد فيها تطهير النفس من الشح والبخل .
ويشاهد فيها قتل شهوات النفس .
ويشاهد فيها إعلاء غرائزها .
ويشاهد فيها تخليص النفس من المادة .
ويشاهد فيها البقاء فى الحق المطلق .

وقوله (إن شانئك هو الأبتر)
يشاهد فيها جبروت الله .
ويشاهد فيها تصارع الحق والباطل .
ويشاهد فيها صبح الحق يضيء .
ويشاهد فيها ظلام الباطل يدبر .
ويشاهد فيها صدق الوعد :

حيث نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وقطع دابر الكافرين ، فقد أبغضوا الرسول ظالمين ، وعادوه معتدين ، وقد أقام لهم الحجة ، وشرع لهم المحجة ، ونصب لهم الدلالة ، وأزال عنهم العلل ...

ثم هم بربهم يعدلون
ولنبيه شائنون
عجباً !!
أيبغضون من جاءهم بالهدى لينقذهم من الضلال؟!
أيبغضون من جاءهم بالحق لينقذهم من الباطل ؟!
أيبغضون من جاءهم بالنور ليخرجهم من الظلمات ؟!
أيبغضون من جاءهم بالحياة ليخرجهم من الرق ؟!
أيبغضون من جاءهم بالروح لينفخ فى أجسادهم الهامدة فتحيا وتسعد ؟!

لمـــــاذا ؟

إنه الجهل !
إنه الجحود ، تعصباً ، أو شهوة ...
إنه التقليد ...

٨ـ هل منا اليوم من يبغض الرسول ؟

سوف نسرع بالجواب ، ونقول : لا

وحقا ليس منا من يبغض الرسول ، بمعنى عقد القلب .

وحقا ليس منا من يبغض الرسول ، بمعنى من يقول له : لا . ولكن هناك نوع شنآن له ، يتمثل فى مشاقته ، وترك العمل ببعض ما جاء ، وما يتصل بالترك ، مما يتمثل بعضه فيما يأتى :

أ — الإبطاء فى تنفيذ ما تركنا .
ب — معارضة الداعين إلى المطالبة بتنفيذ كل الإسلام .
جـ — ترك المرتكبين للمحرّمات فى أمن ، لا يعيش فيه الدعاة .
د — الاستمرار على سن التشريعات المخالفة (مثل قانون التركات) .
هـ — ليّ الدين لإرضاء الكبار .
و — تقليد أصحاب المذاهب ، فيما يصح الحديث بخلافه .
ز — إيثار الهوى ، فى السلوك الفردى ، أو الجماعى على سنته .

وعلى الداعين إلى الله ورسوله أن يعلموا أنه لا بد لكل حق من جاحد ، ولكل نعمة من حاسد . فعليهم أن يثبتوا ولا يهنوا . وهم الأعلون ، بإذن الله ، ولهم إحدى الحسنيين .

٩ — إعجاز السورة :

تحدى الله سبحانه الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن . وبمنطق العقل : إن صح قولهم إن القرآن أساطير الأولين ، اكتتبها محمد ، أن يسهل عليهم مثله . ولكنهم لم يفعلوا .

وقالوا : إنه مفترى ، فتحداهم بعشر سور مثله .

وبالمنطق نفسه : إن كان كما قالوا . سهل عليهم عشر سور ، إن كان قد عجزوا عن مثله كله .

فتنزّل معهم إلى أدنى حَدّ : أن يأتوا بسورة مثله .

وورد ذلك بأسلوبين :

١ ــ ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾

٢ ــ ﴿ **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله** ﴾

الثانية : تحداهم أن يأتوا بسورة مثل سور القرآن .

والأولى : من الممكن أن يكون الضمير فى (من مثله) راجعا إلى (عبدنا) فيكون تحدى الله للجاحدين من وجهين :

ــ القرآن فى ذاته .

ــ القرآن من جهة مجيئه على لسان أميّ .

ما سـر الإعجاز فى سورة الكوثر ؟

وهى أقصر سور القرآن .

أبادر فأقول : إننا مهما قرأنا عن إعجاز القرآن ، وما كتب عنه فى ذلك قديما وحديثا ، فسوف يظل فى النفس إحساس آخر ينطق بسرٍّ لم تكشف عنه كل هذه المكتوبات ، والمقولات . وسوف يظل هناك شعور بأن وراء كل ما قيل سرّ آخر ، أو أسرار أخر لهذا الإعجاز ، مما يمهد لنا أن نقول : إن السر فى إعجاز القرآن هو فى عجزنا عن أن

ندرك ذلك السِّرّ !!

فلنحاول بيان بعض إعجاز سورة الكوثر ، بمقاييس البشر ، مع الإعلان عن العجز عن كشف الغطاء عن حقيقة الإعجاز :

أولا : من حيث المعانى :

قالوا فى تعريف بلاغة الكلام :

ــ البلاغة : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ــ البلاغة : بلوغ المتكلم بعبارته كنه ما فى نفسه ، من غير إيجاز مخلّ ، وتطويل ممل .

ــ البلاغة : الإيجاز مع الإفهام .

ــ البلاغة : الكلام الذى قلّت ألفاظه وكثرت معانيه(١)

هذه التعريفات تساعدنا على معرفة البلاغة فى معانى السورة : فقد زعم الكافرون ، وخاصة عقبة بن أبى معيط ، أن محمداً أبتر ، ينقطع عقبه ، وخبره بموته .

فردت السورة هذا الزعم ، ودلت على ذلك العطاء البالغ ، الذى لم ينله غيره ، وأنه موصول الخير فى الدنيا ، فى حياته ، وبعد مماته ، مادامت الدنيا ، وفى الآخرة أيضا ، كذلك .

---

(١) (كتاب الفوائد) ص ٩

ولو أن السورة كانت هى الآية الأولى فقط . لكانت عبرت عن المراد بأجمع المعانى .

لكنها استمرت فذكرت من المعانى ما هو من دأب الكتاب ، وطبيعة هذه الشريعة : أن تطلب الشكر على النِّعم .

ثم جمعت فى طلبها المادة والروح ، والعبادة البدنية والمالية ، وهذه سمة من سمات الكتاب الكريم وشريعته توافقت معها السورة على قصرها .

ثم ختمت بما يشبه الحكمة النافذة ، والكلمة الجامعة ، والمقابلة المعنوية ، وتقابل معنى الآية فى صدرها ، والآية آخرها .

وفى معانيها من البشارات للنبى ، والإنذارات لأعدائه :

— من دوام الإعطاء له .
— ونصره على أعدائه .
— وبتر شانئيه ، فى زمانه ، وبعد زمانه .

فقد بلغت السورة ، فى بيان المعنى الكائن ، وبيان ما يكون مبلغا ليس وراءه غاية لمستزيد .

وتضمنت من التشريع ما يُجمِل خلاصة الفكرة الإسلامية .

ثانيا : من حيث الألفــاظ :

ـــ بنيت جملة الإخبار بالإعطاء على الجملة الاسمية ، التى تفيد : ثبوت المعنى واستقراره فى نفسه ، كأنه ليس فى حاجة إلى تقرير مقرر . .

(نحن أعطيناك)

ـــ ثم إدخال (إنّ) التى تزيد الجملة الاسمية توكيدا ، مع فخامتها فى الابتداء ، وقوة وقعها على السمع مباشرة عند الابتداء .

ـــ واختيار ضمير الجمع ، مما يدل على عظمة المعطى ، وهو يدل بالتالى على عظمة المعطىٰ .

ـــ ثم زيادة إفادة استقرار هذه الحقيقة بالفعل الماضى (أعطى) وكأن شانيئه جهلة لا يعلمون . عمى لا يبصرون ما أعطاه .

ـــ واختيار ضمير المخاطب : الدال على رفع الحجاب بين الله وبين نبيه ، ولكن عمى البصائر لا ينظرون ، أو ينظرون ولا يبصرون .

ـــ واختيار لفظ الكوثر بما يدل عليه من الخبر البالغ فى الكثرة .

ـــ وقد تضمن لفظ الكوثر مبالغتين :

ـــ الأولى : دلالة اللفظ ، وهو لم يتكرر فى القرآن .

ـــ الثانية : دلالة استعماله ، حيث هو صفة فى الأصل ، ولكنه حذف الموصوف ، والأصل : أعطيناك الشىء الكوثر . فحذف الموصوف وأبقى الصفة ، دلالة على استقرار الصفة بذاتها ، ثم فى الحذف من توسع الذهن فى الإدراك للمحذوف ، ماليس فى ذكره .

— وترتيب طلب الصلاة والنحر على ذلك الإعطاء الجزيل مع ما علم من حكمة الجمع بين الصلاة والنحر .

— وفى قوله (لربك) التفات من المتكلم ، والالتفات من محاسن البلاغة .

— وخصّ (الرب) لأنه المناسب للرد على زعمهم ، فهو الذى يدبر أمره ، وما كان له ليتركه ، وقد تولى تربيته منذ صغره .

— وفى ذكر شانئه بالصفة لا بالاسم : إعراض عن الشانىء ، وتحقير له بصفته ، وتعليل للحكم عليه بأنه هو الأبتر .

— وفى إضافة (شانئ) إلى ضميره وعد بأن كل من يبغضه هو المبتور أبداً .

ثالثا : فى التراكيب :

— ترتيب المطالبة بالصلاة والنحر على ما أعطاه ، وما فى ذلك من تقرير فريضة إسلامية هى شكر المنعم سبحانه .

وما يتضمنه من الخلق الإسلامية ، بالإشارة ، إلى شكر كل من يجرى الله لك نعمة على يديه .

وأن يكون من شكر الله أثر يعم عباده ، ولا يقف على حد العلاقة بين الله المنعم ، والعبد الشاكر .

— ولما كانوا ينحرون لأصنامهم ، قال له (لربك وانحر) تخصيصا لله بعبادة النحر ، وتخليصا لها من الشرك .

— ثم ختم السورة بهذه الآية التقريرية القاطعة (إن شانئك هو الأبتر) بما فيها من وسائل التقرير والتوكيد الثلاث :
الجملة الإسمية — إنّ : التى يجرى الابتداء بها مجرى القَسَم .
ضمير الفصل الذى يدل على ثلاثة أشياء أيضا :
التوكيد — والقصر — وأن ما بعده خبر لا صفة .

لعمرى إن فى السورة من وجوه الإعجاز كل هذا ، وفيها مالا نعلم مما يدل على صدورها من عالم بمراده من كل كلمة ، وما يليق بها ، وما ينبغى أن يلائمها من الكلام ، وما يناسبها فى المعنى ، لا يخفى عنه مادق من ذلك وما جلّ ، ولا مصرف كل كلمة ، ولا مآلها .

وغير الله تعالى لا يقدر على ذلك ، لأنه أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا .

وتلك سمة القرآن عامة ، فيما تضمن من معان ، وما صاغ من ألفاظ ، وما نسق من تركيب ، ثم ما فيه من روح خفى ، يتعدد بتعدد السور ، إذ كان لكل سورة روحها الجاذب ، ووقعها المؤثر ، مما يجذب العقل ، ويستولى على القلب ، ويأسر المشاعر . مما لم يحظ بمثله ، أو قريب منه قول بشر !!

١٠ — معارضـــة ســـخيفة :

لو كان فى استطاعة العرب معارضة القرآن لكان أيسر عليهم فى

إقامة الدليل على كذب محمد . إذ لا يكلفهم ذلك إلا أن ينطقوا بما يضارعه ، أو يجيلوا الفكر ويأتوا بما يفوقه ولكنهم لم يفعلوا ، والتجأوا إلى المعاداة ، وتفريق الشمل وهم حريصون على العصبية .

وأشعلوا الحروب ، وما كان أغناهم عنها بسطر من الكلام يعارضون به سورة الكوثر .

كان ذلك ، بذاته كافيا لصدق القرآن ، وحقيقة إعجازه .

ولكن أبى الله إلا أن يزيد عجزهم وضوحاً :

حين زعم مسيلمة النبوة ، وادعى أنه يوحى إليه وأن مما أوحى إليه :

(إنا أعطيناك الجُماهر ، فصل لربك وجاهر . إن مبغضك رجل كافر) .

في الحق لولا أن بعض الكتب القديمة ، وخصوصا (تفسير الرازى) ذكر ذلك ما كنت ختمت هذا الجهد بمثل هذا السخف . ولو أن هذه المعارضة فى مقرر تلاميذ المرحلة الثانوية التى أقوم بتوجيه تعليم الدين واللغة العربية فيها ، لسخرت من واضعها ، واتهمت عقله .

— إذ أين هذه المعارضة ؟

— هل هى فى الاحتفاظ بالسورة مع تغيير لفظ مكان لفظ

— وهل ساوت هذه الألفاظ الألفاظ المستبدل بها :

هل : الجماهر ، وهو الشيء الضخم ، تساوى الكوثر ؟

وهل كلمة (وجاهر) توضح العبادة المالية ، والاجتماعية وتتمم جهتى التشريع مثل كلمة (وانحر)؟

وهل الحكم على المبغض بأنه كافر أعطى جديد معنى ، مثل ما أعطى لفظ (أبتر) .

وهل فى لفظ (كافر) ما يقابل جزاء (إنا أعطيناك الجماهر) كما يتقابل لفظ (الكوثر) ولفظ (أبتر) ؟

ليست المعارضة أن آتى بأصل الموضوع المعارض ، ثم أغير بعض ألفاظه .

إنه ، حتى فى هذه الساعة ، سيظل الفضل للأصل .

لقد أتى القرآن للعرب ، ثم للدنيا بعد ، بلغتهم ، وكلامهم وأساليب بلاغتهم ، ولكنه بعد ذلك فاجأهم بما لم يعرفوا من الفكر ، والموضوعات فأين ما فيه من الحديث عن الخالق وصفاته وأفعاله . والكشف عن الكثير من هذه الأسرار الإلهية ، والحقائق الكونية . والقواعد التشريعية . والآداب الاجتماعية ، التى تعصم العقل ، وترشد الفكر ، وتهذب الوجدان ، وترقى بالمجتمع ، وتسعد الإنسان ، وتنشر الحق والخير والجمال ، وسائر القيم التى بها يصير الإنسان إنسانا ، ويحقق وجوده السامى ...

وما فى القرآن من بيان صالح الأعمال ، وتمييز قبحها من حسنها ، وما يترتب على ذلك من السموّ بالفرد والأمة .

وما فى القرآن من بيان الآخرة وأحوالها وأهوالها ، وجزاء المؤمنين والكافرين .

وما فى القرآن من سنن اجتماعية لله فى الناس ، كتلك السنن الكونية فى الأشياء ، وبيان ذلك أصدق بيان . مؤيداً بحقائق العقل ، وقوانين المنطق ، ووقائع التاريخ .

وما فى القرآن من أخبار الماضين ، مما كشف عنه القرآن ولولاه لظل غيبا مكنونا ، عليه حجاب مستور .

وما فى القرآن من تصحيح العقائد ، ورد التحريف والتبديل ، والكتمان ، مما صحح مسار البشر إلى الله ، وأخذ بيدهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض .

وما فى القرآن الكريم من شرع حكيم أزرى بكل ما عرفت وتعرف البشرية مما وضعت العقول . فحقق للبشرية العدل والإخاء والمساواة . وسائر القيم التى ما زالت البشرية إلى اليوم تحلم بها .

... كل ذلك وغيره .

فى لغة سجدت البلاغة لها ، وسجد البلغاء .

أين ذلك كله مما كان العرب يجيلون فيه ألسنتهم وكلامهم وهذه آثارهم باقية إلى اليوم ناطقة بالبون الشاسع والبعد البعيد بين ما قالوا ، وبين القرآن . حتى لقد هجر كثير من بلغائهم وشعرائهم القول بعد نزول القرآن ومن قال منهم تدرك ، كما أدرك كل دارس

لتاريخ اللغة العربية وآدابها ، هبوط قوة شعره فى الإسلام عنه فى الجاهلية .

وإن شاعراً فحلا ، مثل لبيد بن ربيعة ، الذى عُدّ فى أصحاب المعلقات ، وهو على الأقل من فحول شعرائهم لم يقل فى الإسلام إلا بيتا واحداً هو :

الحمد لله ، الذى لم يؤتنى أجلى
حتى كسانى من الإسلام سـربالا

وأنا أقول : الحمد لله الذى أعلى الحق ، ودحر الباطل ، ونصر عبده ، وبتر شانئيه ، وأبقى دينه ، وحفظ كتابه .

أسأله العون على تحصيل العلم وإنفاقه خالصا لوجهه الكريم .

المنصورة فى : ربيع الأول ١٤٠٣
يناير ١٩٨٣

عبد المجيد حامد صبح
موجه التعليم الثانوى بالدقهلية

بعض المراجـــع

١ ــ السيرة الحلبية .
٢ ــ الباعث الحثيث فى علوم الحديث .
٣ ــ تاريخ العرب وعصر الرسول ــ لأستاذنا د . عبد الفتاح شحاته
٤ ــ عبقرية محمد .
٥ ــ (كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)
٦ ــ القاموس المحيط .
٧ ــ الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى .
٨ ــ سيرة ابن إسحاق المشهورة بسيرة ابن هشام .
٩ ــ مختار الصحاح .
١٠ ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى .
١١ ــ تفسير الفخر الرازى .
١٢ ــ تفسير الكشاف .
١٣ ــ تفسير ابن كثير .
١٤ ــ تفسير المنار الجزء الأول .
١٥ ــ تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده .
١٦ ــ غريب القرآن للسجستانى .

١٧ ــ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز

١٨ ــ الإتقان فى علوم القرآن .

١٩ ــ العقائد النسفية بشرح التفتازانى .

٢٠ ــ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإدارة .

* * *

الفهرس

الموضـوع	صفحـة

748

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٠٠ — ٨٤
ترقيم دولى ٣ - ٠٠ - ١٤٢٠ - ٩٧٧